الفكر التربوي عند
ابن جماعة

دراسة وتحليل

الدكتور عبد الامير ز. شمس الدين

الشركة العالمية للكتاب ش م ل
مكتبة المدرسة - دار الكتاب العالمي

الفكر التربوي عند
ابن جماعة

الفكر التربوي عند
ابن جماعة

دراسة وتحليل

الدكتور عبد الامير ز. شمس الدين

الشركة العالمية للكتاب ش م ل
مكتبة المدرسة - دار الكتاب العالمي

القسم التربوي

الشركة العالمية للكتاب

د. عبد الأمير شمس الدين

دكتوراه دولة في فلسفة التربية

أستاذ في الجامعة اللبنانية

عبد الحميد فايد

أستاذ التربية وأصول التدريس

في جامعة بيروت العربية

الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل.

طباعة - نشر - توزيع

مكتبة المدرسة

دار الكتاب العالمي

الدار الافريقية العربية

الادارة العامة

الصنائع - مقابل الاذاعة اللبنانية

هاتف ٣٤٩٠٥٥-٣٤٩٣٧٠ - ص.ب ٣١٧٦

تلكس LE ٢٢٨٦٥ - برقيا: كتالبان

بيروت - لبنان

المستودعات

هاتف ٣٥١٤٣٣

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٩٠

رمـوز ومختصـرات

ج: جزء.
د. ت: دون تاريخ.
را: راجع.
ص: صفحة.
صص: من صفحة كذا الى صفحة كذا، صفحات عديدة.
ط: طبعة.
قا: للمقارنة، قارن.
مج: مجلد.

تقديم

كان من المقرر أن يُقَدَّمَ هذا العملُ إلى المطبعة منذ مدة جعلتها الأحداث المأساوية في لبنان طويلة مُثْقلَة. إنَّ «تذكرة السامع والمتكلم...» لابن جماعة نتاج حَسَنُ الجودة في التنظيم والتبويب والصياغات. وهو ثمرةٌ يانعة من الثمار التربوية التي بزغت بعد عطاء الغزالي التوليفي التركيبي.

ويعتبر ابن جماعة من بين الفقهاء التربويين الذين قدموا أفكارهم في نَسق، وبشكلٍ عامٍ موحَّدٍ وكلّي تتآلف فيه العناصر وتتضامن لتعطي التربية تعريفاً واضحاً وأهدافاً أو مقاصد تنصبُّ على بناء الانسان السليم، في الأمة القوية، والمجتمع المعافى.

إن «تذكرة السامع والمتكلم» تأخذ اليوم تحليلاً وافياً ونظنه مستنفداً، ثم اننا حاولنا الجهد لوضع المؤلِّف ابن جماعة داخل شبكة المفكّرين التربويين في تراثنا. وهكذا فإن المؤلِّف والمؤلَّف هما، في عملنا هذا، معروضان في دراسة جديدة وفي صياغة جديدة. لقد سبق أن طُبع كتاب ابن جماعة، لكن طبعتنا هذه، كما سنرى، تقوم على مخطوطات اكثر، وعلى ترتيب أفضل، وعلى عرضٍ أوضح وتسهيلات عديدة اخرى. اما الدراسات عن «تذكرة السامع» فتبقى موزعة هنا وهناك، ونُتَفاً على شكل مقالات سريعة لا تكفي ولا تضع ابن جماعة ضمن الفكر التربوي الاسلامي العام.

لعلنا وُفقنا. وإن لم يكن نجاحُنا كبيراً فإنه يبقى مع كل الوعي لمشوبات أو نقائصه، كافياً ليقدِّم للباحث والطالب والقارىء كلاماً كليّاً ونظرة شاملة ومحلَّلة عن ابن جماعة.

ع. أ. شمس الدين

القسم الأول

التحليـل

المذهب التربوي

عند بدر الدين ابن جماعة

تحليل «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم»

تمهيد عام

١ ـ التربية الفقهية بعد الغزالي وحتى القرن العاشر (السادس عشر للميلاد):

طغى الغزالي على المفكرين الذين أتوا بعده في مجالات شتى، خاصة في مضمار التأديب والتعليم والتربويات. وبعبارة أخرى فإن الذين كتبوا في «رياضة الصبيان» بعد الإمام ابي حامد تغذوا من مائدته؛ بل كرروه دون أن يقدموا مبادىء تربوية جديدة. فقد اكتفوا بتوضيح أفكاره وتوسيعها؛ انهم وَسَّعوا ما قاله الغزالي، لاجئين في ذلك إلى زيادة تقميش الأحاديث والقصص، أو إلى إدخال تطويرات طفيفة نجحت بفعل تطور بعض الوسائل والأدوات في التعليم.

٢ ـ اعلام التربية الفقهية من القرن الهجري السادس حتى العاشر (العاشر الميلادي حتى السادس عشر):

أشهر الفقهاء المربين الذين وضَعوا، بعد الغزالي، رسائل مخصصة للتربية والتأديب هم بحسب التسلسل التاريخي: الزرنوجي (ت ١١٧٥/٥٧١)، الطوسي (ت ١٢٧٣/٦٧٣)، ابن جماعة (١٣٨١/٧٧٣)، السبكي (١٣٦٩/٧٧١).

ثم جاء بعد هؤلاء الاعلام زين الدين بن أحمد الشامي(١٥٥٨/٩٦٦)،

المنقب بالشهيد الثاني، والذي سبق أن خصصنا له كتاباً مستقلاً[1]. كما عاش في تلك الفترة نفسها آخرون كتبوا في المجال عينه، وإنْ كانوا اقل شهرة، وهم: البَدْرُ الغَزّي (ت ٩٨٤) والعَلْمَوي، وغيرهما.

٣ ـ ابن جماعة احد ممثلي النظرية التربوية الفقهية بعد الغزالي:

ابن جماعة هو أكبر الأسماء في لائحة أعلام التربية الفقهية اللاحقة على فترة الغزالي. سوف نحاول تحليل الآراء التربوية لذلك المفكر، وأحكامه في فضل العلم، ووصاياه في آداب المعلم والمتعلم كنموذج للفقهاء التربويين ما بعد الغزالي. وذلك كله في نَسَق محكم البنيان، مترابط الأجزاء.

(القرن الثامن للهجرة) ابن جماعة هو إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد الكناني. برهان الدين، أبو إسحاق حموي الأصل، شافعي. هو مفسر وخطيب، ومن كبار شيوخ عصره. نشأ في دمشق، وسكن القدس، وولّي قضاء الديار المصرية مراراً. ثم ولّي قضاء دمشق والخطابة بها ومشيخة الشيوخ. تنسب إليه أعمال جليلة، وخدمات كثيرة للناس[2].

---

(١) انظر: كتابنا عنه بعنوان: الفكر التربوي عند زين الدين بن أحمد.

(٢) للتفاصيل: الزركلي، مج ١، ص ٤٦ ـ ٤٧. الشذرات، ج ٦، ص ٣١١. الأنس الجليل، ج ٢، ص ٤٥٢.

في فضل العلم والعلماء أو فضل التعليم والتعلم

يقدم ابن جماعة آيات قرآنية كثيرة تؤيد مطلوبه في تبيان ما للعلم والعلماء من فضلٍ يعم المجتمع كافة. كما انه يلجأ أيضاً إلى أحاديث نبوية وإلى أخبار وروايات يقمّشها بعناية وبإكثار؛ فهو الفقيه الشافعي (من أهل النقل) حيث كان القرآن والسنة وأخبار السلف الصالح، المعين الذي نهل منه مصادره بصدد فضل العلم والتعلُّم[1]: «إن الاشتغال بالعلم لله افضل من نوافل العبادات البدنية من صيام وصلاة وتسبيح ودعاء ونحو ذلك. لأن منافع العلم تعمُّ صاحبه والناس، ومنافع النوافل البدنية مقصورة على صاحبها». والدليل على ذلك كما يقول: «إن العلم مصحّح للعبادات، وهي تفتقر إليه. وهو لا يتوقف عليها. ثم إن العلم يبقى اثره، وغيره يذهب مع صاحبه...». ثم يشير ابن جماعة إلى أن تلك الأهمية الكبرى للتعليم والتعلم والعلماء لا تطال كل العلماء ولا كل علم. ذلك أن مؤلِّفنا ينبه بقوة إلى أنَّ الفضيلة المقصودة بأهل العلم هي فقط من «حق العاملين الابرار المتقين الذين قصدوا به وجه الله». ولنتذكر باستمرارٍ عظةً أو حكمة هي: إن العلم هو ما يبقى بعد موت صاحبه، ويحفظ الشريعة ويحييها.

---

(١) انظر، النص، فصل في فضل العلم وأهله ص، ٦٧ - ٧٢.

آداب العالم (المعلّم)

يهتم ابن جماعة بتقسيم آداب المعلم كي يسهِّل الموضوع أو يبرز جوانبه المختلفة بطريقة واضحة. وهكذا فإنه يجعل آداب المعلِّم (العالِم) تتناول ثلاثة جوانب:

الجانب الأول: آداب المعلم في نفسه.

الجانب الثاني: آدابه مع طلابه.

الجانب الثالث: آدابه في درسه.

١ ـ آداب المعلم في نفسه[1]:

من واجب المعلم كما رأينا وكما سنرى عند ابن جماعة، التحلي بالصفات الأخلاقية المطلوبة من رجل الدين ومن أي شخص مؤمن. وعلى ذلك فإن من شروط المعلم وآدابه سواء المتعلق منها بنفسه أو مع طلابه، أو في التدريس يمكن أن نلخصها في الرسم البياني التالي:

---

(١) المقصود بالآداب هنا، هو كما قلنا مراراً عديدة في الأجزاء السابقة من هذه السلسلة، الشروط والواجبات أو القواعد المثلى التي يجب انتهاجها لتأدية التعليم على أحسن وجه واكتساب التعلم بأفضل الأساليب وأكثرها ريعاً. مع الإشارة أن كلمة الآداب، قبل هذه الحقبة، كانت تعني «العلوم» عند الآدابيين من الكُتّاب. في هذا الصدد انظر، من موسوعتنا، الفكر التربوي عند الآدابيين.

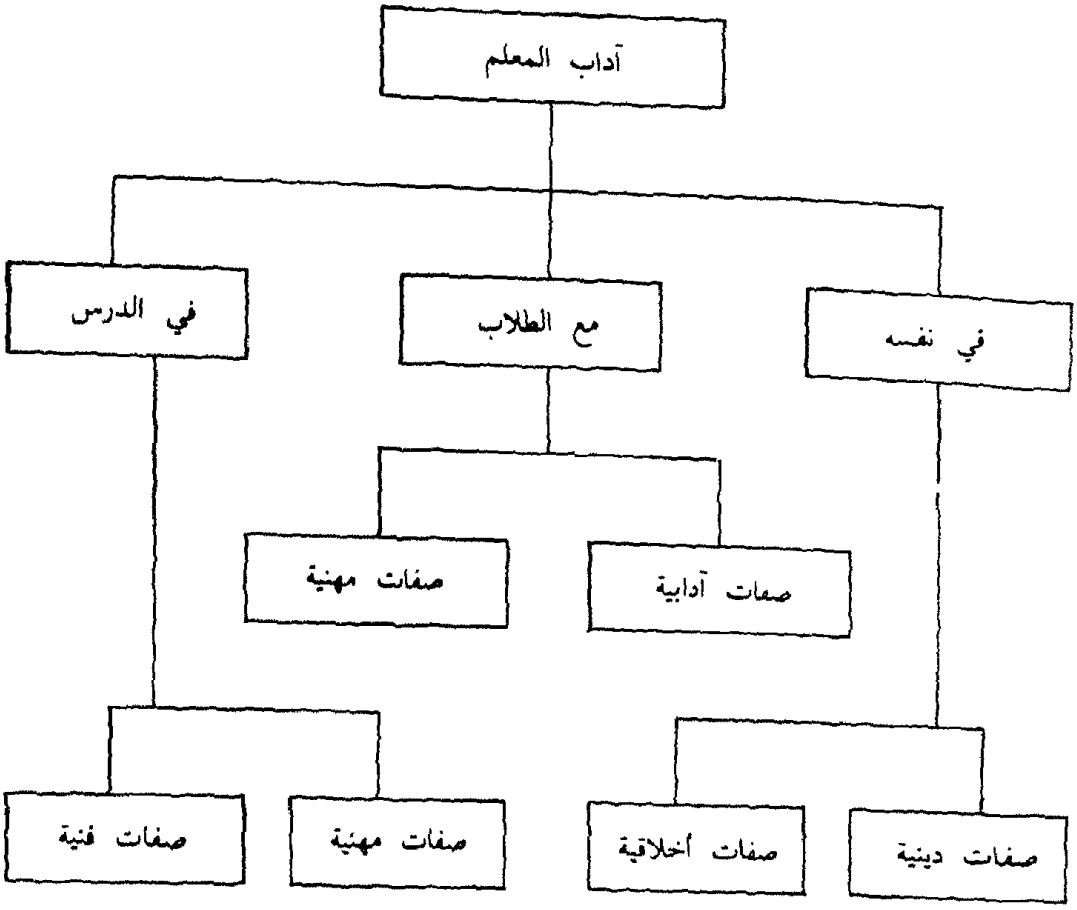

أولاً: خصائص تتعلق بشخصية المعلم:

أ- خصائص أخلاقية:

من المفروض على المعلم أن يكون ذا أخلاق رفيعة. فعليه، مثلاً: التحلي بالوقار، والخشوع، والتواضع، والخضوع لله ولمراقبته في السر والعلن. ثم يجب أن لا يذهب المعلم إلى السلاطين والملوك من غير ضرورة أو حاجة[1]. فالمعلم كبير القدر، عظيم الشأن، لا يذهب إلى الحكام إلّا عند الحاجة والضرورة إعزازاً للعلم وشرفه.

ولعلَّ ما يساعد المعلم على التحلّي أو اكتساب هذه الأخلاق هو الزهد بالدنيا والقناعة بالضروري منها.

---

(١) النص، ص ٧٦.

لذا فإنّ الزهدَ في الدنيا صفةٌ واجبة الوجود عند المعلم. لهذا يتوجب عليه أن يقلّل ويقتصد بقدر الإمكان من حاجياته ومطلوباته من الدنيا، وأن يأخذ ما يكفيه ويكفي عياله فقط. والخلاصة، يوصي ابن جماعة المعلمين بأن ينتبهوا دائماً إلى خسة الدنيا وزوالها وحقارتها؛ فهم أولى الناس بمعرفة ذلك. ومن هنا فعليهم التنزه عن المكاسب والمقتنيات... وأن لا يقوموا بمهن مثل الحجامة، والدباغة، والصياغة[1]. ولا ان يقوموا بأعمال توقع في الشبهة أو في التهمة وتدفع الناس إلى الظنون، كي لا يسيئوا الى العلم الذي هم حَمَلتُه وأهلُه.

ب ـ خصائص دينية:

إلى جانب الصفات الأخلاقية الرفيعة التي رأيناها، يطلب ابن جماعة من المعلم صفات دينية صرفة هي مثلاً: المحافظة على القيام بشعائر الإسلام، وعلى المندوبات الشرعية قولاً وفعلاً مثل: تلاوة القرآن. وذكر الله بالقلب واللسان، وحفظ هيبة النبي عند ذكر اسمه[2]. وعليه واجب معاملة الناس بمكارم الأخلاق، وصيانة الباطن والظاهر.

ويكثر ابن جماعة بشكلٍ ملحوظ جداً من تحميل المعلم خصائص رفيعة، وندبه للأخلاق السامية[3]. وما ذلك، بنظره، إلا لأن زلّة المعلم(العالم) كبيرة؛ ثم لكونه القدوة للناس ولطلابه، وبالتالي فلا بد من أن يتمتع **بطلاقة الوجه**، وبالقدرة على كظم الغيظ، وعلى الايثار، وعلى التلطف، والأمر بالمعروف، الخ[4].

---

(١) من المعروف جداً في التراث التربوي الإسلامي رفض المهن والأعمال اليدوية للمعلم. فالتعليم، كما رأينا عند زين الدين العاملي وكما هو هنا عند ابن جماعة، مهنة شريفة ويعم فضلها المجتمع. ومن غير اللائق بالمعلم العمل للتكسب إذْ بذلك يفقد احترامه.

(٢) النص، ص ٧٩.

(٣) واجب المعلم بالإضافة إلى ما ذكرنا أعلاه، هو الابتعاد عن الأخلاق الرديئة مثل: الحسد، البغض، الغضب، الكره، الرياء، العجب، احتقار الناس... ويلاحظ أن ابن جماعة، في هذه الوصايا والإرشادات، شديد التأثر بكتاب «الرعاية» للحارث المحاسبي.

(٤) النص، ص ٨٠.

جـ ـ خصائص مهنية:

يرى ابن جماعة أن الجانب المثالي في العلم لا يستطيع أن ينفي وجوب وجود خصائص معينة تؤهله للقيام بواجباته في التدريس، على رأسها عدم تنصبه لهذا المنصب الا بعد اكتمال الأهلية. وهكذا فإن على المعلم واجب المواظبة على التحصيل المستمر، والمحافظة على قراءة الأوراد قراءة وإقراءً، وعلى المطالعة والتفكر، وعلى الحفظ والتصنيف والبحث. على المعلم أن «لا يضيع شيئاً من عمره في غير ما هو بصدده من العلم الابقدرالضرورة من أكل وشرب أو نوم أو استراحة أو أداء حق زوجة أو تحصيل قوت»[1] وذلك «لأن درجة العلم هي درجة وراثة الأنبياء، ولا تُنال الا بشق الأنفُس».

إلى جانب هذه القواعد المثالية الموقع، الصعبة المرتقى، الموجهة الى المعلم، نجد ابن جماعة يطلب المزيد: فعلى العالِم نشدان الحكمة دائماً إذْ هي وحدها ضالته، وعليه واجب التعاون مع الطلاب (كتعاون الشافعي أو ابن حنبل مع طلابه) من أجل الوصول إلى الحقيقة.

ولا ننس، بالإضافة إلى كل ما سبق، ان من واجبات المعلم الاشتغال بالجمع والتصنيف والبحث في أوقات فراغه. فلا يجوز للمعلم، في نظر ابن جماعة، الكف عن النظر والتوقف عن التحصيل والإفادة والاستفادة. فالمعلم، عنده، هو الذي قد وقف نشاطه واجتهاده بل حياته كلها على العلم وطلبه وتحصيله من أي جهة يجده بها لينفع به نفسه وطلبته. إلى جانب هذه الخصائص التي تبدو مثالية وشديدة الطموح، تقوم آدابية (شروط وواجبات) أخرى. فما. هي؟.

٢ ـ آداب المعلم في درسه(في حلقة الدرس):

يبدأ التحضير لها قبل خروجه من البيت للدرس، وتنتهي عندما ينفضّ الدرس أو عند ذهاب الطلاب.

ولا يسمح ابن جماعة للمعلم بالدخول إلى حلقة التدريس إذا لم يكن مهيِّئاً

---

(١) النص، ص ٨٣.